الجزء الثالث المجلد التاسع والعشرون

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٤ ٢٩ شوال سنة ١٣٧٣

مقالة أبي العلاء
أو
مذهب العقل

لأبي العلاء المعري آراء في الدين والحياة والأخلاق ، لو جمعت ونسقت لكانت مذهباً مستقلاً في الأصول والفروع والعبادات وبعض المعاملات ، تشبه مقالات بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة أو الخوارج أو غيرهم من فرق الإسلام .

ودليل أبي العلاء في عقيدته وسائر آرائه العقل وحده ، لا يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه ولا يصدر إلا عنه وكثيراً ما صرّح بذلك ، وقد سمى مذهبه فيما كان يعتقده ويراه « مذهب العقل » والى ذلك يشير بقوله :

« وما آدم في مذهب العقل واحداً »

ولم يمنعه من دعوة الناس الى مقالته إلا سوء ظنه بالناس ، واعتقاده أنهم عبيد الأوهام وخصوم الحقائق ، لا دواء لدائهم ، ولا صلاح لفسادهم ، وهو القائل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لحى الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا كفرْ

كم وعظ الواعظون منا وقام في الأرض أنبياءْ
فانصرفوا والبلاءُ باقٍ ولم يزل داؤك العياءْ

يضاف الى ذلك فقد بصره الذي جعله عاجزاً عن القيام بالأمور التي يعانيها الدعاة . فاكتفى بتدوين آرائه شعراً ونثراً ولم يجادل بها أحداً ، بل تركها للزمان .

ولئن كان أكثر آرائه صحيحاً راجحاً ، فإن في بعضها من شطط العقل ما يحاكي في الغلو والإفراط شطحات المتصوفة ، على بعد ما بين المذهبين .

رأيه في الخالق

أبو العلاء مؤمن بالله وأنه واحد لا شريك له ، عظيم لا حد لعظمته :

ما قيل في عظم المليك وعزه فالله أعظم في القياس وأكبرُ

يتبرأ من سفه المعطلين وجحود الجاحدين :

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فياجاحد اشهد أنني غير جاحدِ

كما يعجب لضلال الملحدين :

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

والبشر أصغر من أن يكونوا عبيداً له :

يسمون بالجهل عبد الرحيم وعبد العزيز وعبد الصمدْ
وما بلغوا أن يكونوا له عبيداً وذلك أقصى الأمدْ

وعلماء التوحيد في كل ما قرروه من توحيده وتنزيهه ، أعجز من أن يحيطوا بكنهه ، أو يقدروه حق قدره :

سألتموني فأعيتني إجابتكم من ادّعى أنه دارٍ فقد كذبا

وحججهم على وجوده أضعف من أن يحتاج اليها العاقل ، واختلافهم في صفاته دليل على عجزهم وفضولهم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قلتم لنا خالقٌ حكيمٌ قلنا صدقتم كذا نقولُ
زعمتموه بلا مكانٍ ولا زمانٍ ألا فقولوا
هذا كلام له خبيءٌ معناه ليست لنا عقول

وكتب المناظرة التي وضعوها لم يقصدوا منها الا التنافس في الدنيا :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعتْ كتبُ التناظر لا المغني ولا العُمَدُ

رأيه في العبادة

عبادة الله في رأي أبي العلاء خير ما يفعله الانسان في حياته ، لأنها واجب لمن هو أهل للعبادة ، ولأنها تزكية للنفس الإنسانية الميالة الى الشر ، تنهاها عن اقتراف الآثام :

ما أحسن الأرض لو كانت بغير أذى ونحن فيها لذكر الله سكانُ

وأنواع العبادة التي أكثر أبو العلاء من ذكرها وكان يمارسها : التسبيح والصلاة والصيام ، ويلاحظ ان صلته بالله صلة تعبد وتمجيد وإجلال وإكبار ، شأن العالم العاقل الذي فكر في جليل قدرة الصانع فعبده خاشعاً ورأى نفسه أصغر من أن يكون عبداً له ، لا كصلة بعض المتصوفة الذين يتوسلون اليه بالحب ، فترتفع الكلفة بينهم وبينه ويتغزلون به ، حتى يخيل لبعضهم انه يحل بهم .

وأقواله في هذه الأنواع من العبادة كثيرة منها :

اذكر إلهك إن هببتَ من الكرى واذا هممتَ بهجعةٍ ورقادِ

أسنى فعالك ما أردت بفعله رشداً وخير كلامك التسبيحُ

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنماتِ

اركع لربك في نهارك واسجد ومتى أطقت تهجداً فتهجدِ

صمتُ حياتي الى مماتي لعل يوم الحمام عيدُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فمجدوا ربكم إلى أن تلفظ أمواتها القبورُ
فكل ما تفعل البرايا إلاَّ تقى ربها يبورُ

وأعجز أهل هذي الأرض غاوٍ أبان العجز عن خمسٍ فرِضْنَهْ
وصم رمضان مختاراً مطيعاً إذا الأقدام من قيظٍ رُميضْنَهْ

يدعو أبو العلاء الى العبادة على أن تكون خالصةً لوجه الله ، فاذا اتخذت وسيلة للدنيا أو للخداع فتركها أولى ، إذ أن العاصي الصادق خير من العابد المنافق :

اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها نتاركها عمداً إلى الله أقربُ

رأيه في العالم

عقل الفيلسوف وخيال الشاعر ـ في رأي أبي العلاء ـ أعجز من أن يدرك عظمة هذا الكون الدال على عظمة الخالق ، فالكون واسع لا يتناهى :

ولو طار جبريلٌ بقية عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهرِ

وهو في تكوينه ونظامه حادث يجوز عليه الفناء :

وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالمِ

وأن الشمس والقمر والنجوم يكون لها نهاية كما كان لها بداية :

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقدت من عهد عادٍ وأذكى نارها الملكُ
فإن خبتْ في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلكُ

وما خلتُ السماك ولا أخاه على خلقيهما لا يهرمانِ

ونيِّر الليل وشمس الضحى داما ولكنهما يهلكانْ

وهو لا يستبعد أن يكون في الأجرام العلوية حياة كالحياة التي على الأرض :

إن لم يكن في سماء فوقنا بشرٌ فليس في الأرض أو ماتحتها ملكُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأن من المخلوقات ما لا تراه الأعين :

والله خالقنا اللطيف مكوّنٌ ما لا يبين لسامعٍ أو مبصرِ

ولذلك لا ينفي عن قدرة الله إمكان وجود الملائكة :

لستُ أنفي عن قدرة الله أشبا ح ضياءٍ بغير لحمٍ ولا دمْ

أما البشر فهو حادث ، ولكن كيف ومتى ؟

خالقٌ لا يشك فيه قديمٌ وزمانٌ على الأنام تقادمْ

جائزٌ أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدْ

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندسٍ نتصادمْ

وما آدمٌ في مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس أوادمُ

رأيه في الأنبياء والرسل والأديان والكتب المنزلة

هذا العابد الناسك الورع الصائم القائم يأبى عليه استقلاله في الرأي وتحكيمه العقل وتفكيره الحر الطليق ، أن يؤمن بكل ما أتت به الأديان إذا لم يقبله العقل :

كذب الظن لا دليل سوى العقـــــل مشيراً في صبحه والمساء

فهو يشك بالنبوات والرسالات شكاً منكراً كما يشك بما نقل عن الأنبياء ، ويخشى أن يكون من وضع النقلة والرواة ، ولا يصرح بعصمة الأنبياء :

ارقب إلهك في عسرٍ وفي يسرِ واترك جدالك في بعثٍ وإرسالِ

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكرٌ من القدماءْ

حيلٌ تمن على الأنا مِ فأدمع العقلاء همَّلْ

يحدثونك عن رب العلى كذباً وما درى بشؤون الله إنسانُ

وحبها وهي مذ كانت محببةٌ أقام داود يتلو ليله الزبرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال أناس ليس عيسى مقرباً فقيل ولا موساكمُ بكليمِ

فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهودُ

ولذلك سماه بعضهم بهجاء الأنبياء لما قال إنه لم يهج أحداً من الناس .

وشكه منكر أيضاً في الكتب المنزلة :

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقص وفر قانٌ ينص وتوراةٌ وإنجيلُ

في كل جيلٍ أباطيلٌ يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

عقولٌ تستخف بها سطور ولا يدري الفتى لمن الثبورُ

كتاب محمدٍ وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور

ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنها في تواري

يتلون أسفارهم والحق يخبرني بأن آخرها مينٌ وأولها

صدقتَ يا عقل فليبعد أخو سفهٍ صاغ الأحاديث إفكاً أو تأولها

وأهل الأديان عنده يسيرون على غير هدى في دياجير الضلال :

وجاءتنا شرائع كل قومٍ على آثار شيء رتبوهُ

وغيَّر بعضهم أقوال بعضٍ وأبطلت النهى ما أوجبوهُ

قد ترامت الى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديانُ

هفت الحنيفة والنصارى مااهتدتْ ويهود تاهت والمجوس مضللهْ

اثنان أهل الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخر دينّ لا عقل له

وقد فتشت عن أصحاب دينٍ لهم نسكٌ وليس لهم رياءُ

فألفيتُ البهائم لا عقولٌ تقيم لها الدليلَ ولا ضياءُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا تبدؤني بالعداوة منكمُ فسيحكم عندي نظير محمدِ
أيغيث ضوء الصبح ناظر مدلجٍ أم نحن أجمع في ظلام سرمدِ

الإسلام

كان أبو العلاء في توحيد الله وعبادته مسلماً مخلصاً ، لا يرى مثل الإسلام ديناً يتفق مع العقل في توحيد الله وتنزيهه وتمجيده :

أفلة الإسلام ينكر منكرٌ وقضاء ربك صاغها وأتى بها

وإن لحق الإسلام خطبٌ بغضه فما وجدتْ مثلاً له نفس واجدِ

ويعظم من شأن النبي عليه السلام وينوه ببعض ما دعا اليه من معالي الأمور :

دعاكم الى خير الأمور محمدٌ وليس العوالي في القنا كالسوافلِ
حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعاتٍ وآفل
وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرضٍ له ونوافل
وحث على تطهير جسمٍ وملبسٍ وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمراً خلت ألباب شربها من الطيش ألباب النعام الجوافل
فصلى عليه الله ما ذرّ شارقٌ وما فتّ مسكاً ذكره في المحافل

ويظهر جلياً تفضيله الإسلام قوله في مسلم تنصر بغية عَرَض الدنيا :

تنصر من بعد الثلاثين حجةً وكم لاح شيبٌ قبلها في المفارقِ
وفارق دين الوالدين بزائلٍ ولولا ضلالٌ بالفتى لم يفارقِ
فواعجباً من أزرق العين غادرٍ أفاد فمالت نفسه للأزارق
مخاريق تبدو في الكنائس منهم بلحنٍ لهم يحكي غناء مخارق[1]
وحسبك من عارٍ يشب وقوده سجودك للصلبان في كل شارق

---

(١) مخارق من المغنين المشهورين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما حزن الإسلامَ مغداك زائراً عليه ولكن رحت روحة فارقِ
تركت ضياء الشمس يهديك نورها وتبَّعْتَ في الظلماء لمحة بارق

وكان يستحسن من فروض الإسلام الصلاة والصيام وقد سبقت الإشارة اليهما في فصل العبادة ، ويستحسن الزكاة ويحث عليها :

زكوا على مذهب الكوفي[1] أرضكمُ وخالفوا رأيه في مسكرٍ طبخا

خذوا سيري فهن لكم صلاحٌ وصلوا في حياتكم وزكوا

ففض زكاة مالك غير آبٍ فكل جموع مالك بنفضضنه

كما كان يستحسن كثيراً تحريم الخمر ، وأقواله في ذلك أكثر من أن يشار اليها ، وسنفرد لها فصلاً خاصاً .

ولكنه كان يناقش الإسلام في بعض أحكامه ، ويشك في بعضها ، وينتقد بعضها . من ذلك أنه لم تظهر له حكمة الحج واجتماع المسلمين في صعيد واحد كل سنة ، ولم يدرك من منافع الحج ما وراء المناسك الظاهرة :

ماالركن في قول ناس لست أذكرهم إلاَّ بقية أوثانٍ وأنصابِ

وما حجي الى أحجار بيتٍ كؤوس الخمر تشرب في ذراها

أرى عالماً يرجون عفو مليكهم بتقبيل ركن واتخاذ صليبِ
ففغرانك اللهم هل أنا طارحٌ بمكة في وفدٍ ثياب سليبِ

وكان يشك بالحشر في كثيرٍ من شعره :

زعموا أنني سأرجع شرخاً كيف لي كيف لي وذاك التمامي
وأزور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود في الأرماس

---

(١) يريد بالكوفي أبا حنيفة ومذهبه أن الزكاة تجب في كل ماتنبته الأرض ما عدا الحشيش والحطب والقصب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيها طارقٍ أصابك يا طا رق حتى مساك للغي ماسي

لو كان جسمك متروكاً بهيئته بعد التلاف طمعنا في تلافيهِ
كالدن عطل من راحٍ تكون به ولم يحطَّم فعادت مرةً فيه
لكنه صار أجزاءً مقسمة ثم استمر هباءً في سوافيه

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يعاد لنا سبك

خذ المرآة واستخبر نجوماً تمر بمطعم الأري المشورِ
تدل على الحمام بلا ارتيابٍ ولكن لا تدل على النشور

على أن هذا الشك المضطرم قد تهب عليه نفحة من برد اليقين فيقول :

بحكمة خالقي طيي ونشري وليس بمعجز الخلاق حشري

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

وكان يشك في عذاب القبر وسؤال الملكين :

إذا حرق الهندي بالنار نفسه فلم يبق نحضٌ للتراب ولا عظمُ
فهل هو خاشٍ من نكيرٍ ومنكرٍ وضغطة قبر لا يقوم لها نظم

ويشك كذلك بالملائكة والجن :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحس لجني ولا ملكِ

فاخش المليك ولا توجد على رهبٍ إن أنت بالجن في الظلماء خشّيتا
فإنما تلك أخبارٌ ملفقةٌ لخدعة الغافل الحشوي حوشيتا

ما صح عندي أن ذات خلاخلٍ تقفى من الجن الغواة بتابعِ

وكثيراً ما ينتقد أحكام الشريعة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن الشرائع ألقت بيننا إحنًا وأورثتنا أفانين العداواتِ
وما أبيحت نساء الروم عن عرضٍ للعرب إلا بأحكام النبوات

تناقضٌ مالنا إلاّ السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النارِ
يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ فديت ما بالها قطعت في ربع دينار

والأُم بالسدس عادت وهي أرأف من بنتٍ لها النصف أو عمٍ لها الربعُ

وكان لا يرى الجهاد :

قد ادعى النسك أقوام بزعمهم وكيف نسك غوي رمحه ورسُ

فإن ترشدوا لاتخضبوا السيف من دمٍ ولا تلزموا الأميال سبر الجرائحِ

ويتهم المجاهدين بأنهم لا يبغون من جهادهم إلاّ الغنائم :

غرض القوم متعةٌ لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء

وكان لا يثق بالنقل ويطعن على ما يرويه الرواة :

كل الذي تروون عن مولاكمُ كذبٌ أتاكم عن يهود يُحَبَّرُ

وأحاديث خبرتها رواةٌ وافترتها للمكسب القدماءْ

تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا فقلتم نَعَمْ
أفيقوا فإن أحاديثهم ضعاف القواعد والمُدَّعمْ
زخارف ما ثبتت في العقو ل عمّى عليكم بهن المعمْ

وكان لا يجد في جميع الفرق والمذاهب الإسلامية ما يقنع به عقله :

أرجؤا أو اعتزلوا فإني عن مقامكم بمعزلْ

ومعتزلي لم أوافقه ساعةً أقول له في اللفظ دينك أجزلُ
أريد به من جُزْلة الظهر لم أرد من الجزل في الأقوال تلوى وتجزل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جهلتُ أقاضي الري أكثر مأثماً بما نصه أم شاعرٌ يتغزلُ
وأعلم ان ابن المعلم هازلٌ بأصحابه والباقلاني أهزل
وكم من فقيهٍ خابطٍ في ضلالةٍ وحجته فيها الكتاب المنزل

أجاز الشافعي فعال شيءٍ وقال أبو حنيفة لا يجوزُ
فضلّ الشيب والشبان منا وما اهتدت الفتاة ولا العجوز

وينفر عقلي مغضباً إن تركته سدىً واتبعت الشافعي ومالكا

خير لعمري وأهدى من إمامهمُ عكاز أعمى هدته إذ غدا السبلا

إنما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصـــرة والقرمطي بالأحساء

ويقول في المهدي الذي ينتظره الشيعة :

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

القضاء والقدر

أكثر ما قاله أبو العلاء في هذا المعنى يدل على الجبر ، وأن الإنسان أتى الى هذه الدنيا مجبراً وسيرحل عنها مجبراً ، وأنه لا خيرة له فيما قضاه الله :

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتمّ وضاعتْ حكمة الحكماء

وهل ألوم غبياً في غباوته وبالقضاء أنته قلة الفطنِ

ويفتتح مقدمة اللزوميات بقوله : « قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الضرير رهن المحبسين وإنما قال بقضاء لا يشعر كيف هو ، كان من سوالف الأقضية أني أنشأت .... »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والشواهد على ذلك كثيرة جداً ، ولكنه إزاء ذلك ينكر على من يرتكب الذنوب ويزعم أنه مجبر قال :

كيف احتيالك والقضاء مدبرُ تجني الأذى وتقول إنك مجبرُ

في هذا البيت مع ما تقدمه رأيان مختلفان ، بين الجبر وعدمه ، فبينا هو يقول ان كل ما هو كائن بقضاء الله ، يعود وينكر على من يجني الأذى زاعماً أنه مجبر ، فكيف نوفق بين هذين الرأيين ؟ الذي يظهر أن أبا العلاء يثبت القدرة المطلقة والأمر كله في الخلق والتدبير لله ، وذلك أدنى الى الجبر ؛ أما الشرور التي يرتكبها البشر فإنه ينزه الله عنها ، فكأنه يقول بالجبر إلا في عمل الشر ، وهكذا فقد جمع بين الرأيين ، ولعل أحسن تفسير لذلك قوله :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسطٍ بين بينا

(يتبع) خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net